الواضح في التفسير

محمد خير رمضان يوسف

المجلد الأول

دار ابن الجوزي
القاهرة

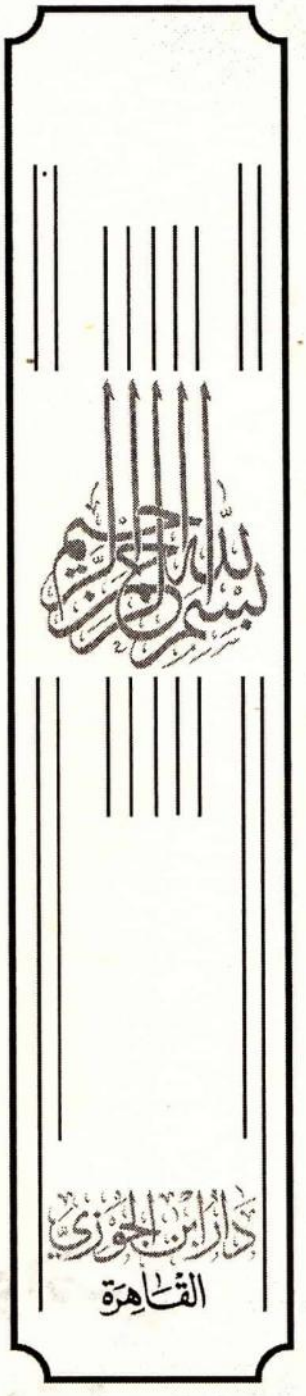

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى

رقم الإيداع : ٢٠٠٣٩ / ٢٠١٣

الترقيم الدولي : ٩-٥٣-٦٤٣١-٩٧٧-٩٧٨

حقوق الطبع محفوظة ٢٠١١م لا يسمح بإعادة نشر هذا الكتاب أو جزء منه أو حفظه ونسخه في أي نظام ميكانيكي أو إلكتروني يمكن من استرجاع الكتاب أو جزء منه.
ولا يسمح بترجمته إلى أي لغة أخرى دون الحصول على إذن خطي مسبق من الناشر.

دار ابن الجوزي

جمهورية مصر العربية - القاهرة
٥ درب الأتراك خلف الجامع الأزهر
ت: ٠٠٢٠٢٢٥٠٦١٦٢١ /تليفاكس: ٠٠٢٠٢٢٥٠٦١٦٢٠
ت: 0020225061903
dar_ebnelgawzy@yahoo.com

الواضح في التفسير

محمد خير رمضان يوسف

المجلد الأول

دار ابن الجوزي
القاهرة

مقدّمة

الحَمدُ للهِ مُنْزِلِ القُرآن، والصَّلاةُ والسَّلامُ على مَنْ خُلُقهُ القُرآن، وعلى آلهِ وأصحَابهِ الذينَ علَّموا القُرآن، ومَنْ تَبِعَهُمْ بإحسانٍ مِنْ أُمَّةِ القُرآن.

وبعدُ:

فإنَّ القُرآنَ الكريمَ كتابُ هِدايةٍ وأحكام، وسُلوكٍ وعَقيدة، ووَعْظٍ وقَصَص، ووَصايا وعِبَر، وبِشاراتٍ ونُذُر... أَنْزَلَهُ اللهُ خِتامًا للكُتبِ السَّماويَّة؛ ليَكونَ مَرجِعًا للناسِ، ودُستورًا لهم في شؤونِ الحياة، مادامتْ هُناك حياةٌ.

ومعَ عَظَمَةِ القرآن، وجلالَةِ قَدْرِه، وسُمُوِّ أحكامِه، فإنَّ النَّاسَ قدْ أعرَضوا عنه، إلا مَنْ رَحِمَ اللهُ.

وكانتِ الهَجمَةُ قَويةً ومُخَطَّطًا لها من قِبَلِ أعداءِ الإسلام؛ لإبعادِ مصدرِ القوَّةِ عندَ المسلمينَ مِنْ ساحةِ الحياة، فكانَ ما كان، واللهُ المسؤولُ أنْ يجمَعَنا تحتَ رايةِ الحقِّ، ويُعِزَّنا بدينِه، وينصُرَنا على القومِ الكافرين؛ ليعودَ القرآنُ سيِّدَ الأحكام، وعَلَمًا يَعْلو في كلِّ مكان، لا يُعلَى عليهِ شَيء.

وهوَ كلامُ اللهِ المُعجِز، الَّذي لا يَقْدِرُ أحدٌ على أنْ يأتيَ بمِثْلِهِ أو جُزءٍ منه، وَصَلَ إلينا بالتواتُر؛ فنَقَلَهُ جَمْعٌ غَفيرٌ عنْ جَمْعٍ كبير، تُحِيلُ العادةُ تَوَافُقَهُمْ على الكذِب، وَصَلَنا مِنْ خلالِ الصُّدورِ والسُّطور، كما أُنْزِلَ على مُحَمَّدٍ ﷺ، وقدْ تكفَّلَ اللهُ بحفْظِهِ دونَ الكُتُبِ السَّابقة؛ فقال عَزَّ مِنْ قائلٍ: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝٩﴾ [الحِجْر: ٩].

ولهُ عُلومٌ كثيرة، دَرَسَها العلماءُ وأَفرَدوا كثيرًا منها بالتصنيف؛ كأسبابِ النُّزول، والمناسباتِ بينَ الآيات، والتفسير، والوجوهِ والنَّظائر، والمُحْكَمِ والمُتَشَابِه، والمكِّيِّ والمَدَنيِّ، والغَريب، والأحكام، والقراءات، والتَّجويد، والنحوِ والإعراب، والخَطِّ، والتدوين، والفضائل، وآدابِ التلاوة، والأمثال، والقَصَص، والنَّاسِخِ والمنسوخ، والإعجازِ بأنواعِه... وغيرِها.

وتَفسيرُ القُرآنِ الكريم مَرغُوبٌ فيهِ ومندوبٌ إليه؛ يَقولُ اللهُ تَبارَكَ وتَعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٩﴾﴾ [ص: ٢٩].

ويقولُ سبحانَهُ: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ [النساء: ٨٢].

ولا يكونُ هناك تدبُّرٌ للآياتِ إلا مِن خلال فَهْمِها، ولا يُفْهَمُ كُلُّها إلاّ بعدَ إيضاحٍ وبَيان، وهوَ ما يُسَمَّى (التَّفسير).

وقدْ ذمَّ اللهُ أهلَ الكتابِ لأنَّهمْ كتَموا العلمَ ولم يُبَيِّنُوهُ للنَّاس؛ فقالَ جلَّ شأنه: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ﴾ [آل عمران: ٨٧]. فلا نكونُ مِثْلَهُمْ، وإلاّ كانَ مصيرُنا مصيرَهُم.

وقدْ سلكَ المفسِّرونَ طرائقَ شتَّى في تَفسيرِ القُرآن، وهمْ يَقولونَ - وَصَدَقُوا - إنَّ أحسنَ طُرُقِهِ أنْ يُفسَّرَ بالقُرآنِ نفسِه؛ فإنَّهُ يُصَدِّقُ بعضُهُ بعضًا، ثمَّ بالسُّنَّةِ التي جاءتْ مُبَيِّنَةً له، ثمَّ بأقوالِ الصحابة؛ فإنَّهم تلامذةُ النبيِّ ﷺ الذي نزلَ عليهِ القرآنُ وهوَ بينَ ظَهْرَانَيْهِم، ثمَّ بأقوالِ التَّابعينَ الذينَ تَلقَّوْا كلَّ هذا منَ الصحابة؛ فهمْ أدرَى بأقوالِهِمْ، وكانوا الأفضلَ بَعْدَهم.

وقدْ غلبَ على تَفسيرِ بعضِ المفسِّرينَ العِلمُ الذي اشتَغلوا بهِ وبرَزوا فيه، وفي كلِّها خيرٌ إنْ شاءَ الله.

كما صَدرتْ تفاسيرُ في هذا العَصر، فيها اهتماماتٌ وتَخصُّصاتٌ جَديدةٌ لم تكنْ في السَّابق.

وقدْ دعوتُ اللهَ أنْ يَجعلَني مِنَ المُشتَغِلينَ بكتابِهِ الكريمِ، بما يَفتَحُهُ

عليَّ ويوفِّقُني إليه، فقدَّرَ سبحانَهُ أنْ يَكونَ ذلكَ تفسيرًا وَتِبْيانًا للقُرآن، كما يَراهُ القارئُ، فهوَ مِنَّةٌ مِنَ اللهِ وفَضلٌ؛ فلهُ الحمدُ ولهُ الشُّكر.

وقدِ اتَّجَهْتُ في كثيرٍ مِنْ كتَاباتي إلى العامَّةِ مِنَ المسلِمين، مِن ذَوِي الثقافاتِ العاديةِ، حتى لا يُفْقَدُوا، وهم جمهورُ الأُمَّةِ وصوتُها وقُوَّتُها وعاطِفَتُها، فلو أنَّ كلَّ ذي تَخصُّصٍ كتبَ في تخصُّصِهِ بِقَلَمِهِ ومُصطلحاتِهِ وتعقِيداتِهِ لَمَا أفادَهم، وَلَمَا أقبَلوا على ما يَكتُب، فكانَ إهمالُهمْ إهمالاً لقاعدةٍ عَظيمةٍ مِنَ المجتَمع، لا تُدرَكُ نتائجُ أضرارِهِ إلاَّ بعدَ حين، وهمْ - كما نَرَى الآنَ - يَتَّجِهونَ إلى كتاباتٍ ووسائلَ إعلاميَّةٍ تُلائمُ مُستواهُم، وفيها ما فيها، فهربَ الكثيرُ منهمْ وفُقِدُوا، أو كادوا.

ولذلكَ جاءَ هذا التفسيرُ على نَهْجِ ما قُلْتُ، فأَحْبَبْتُ أنْ أَضَعَهُ بينَ يَدَيِ القارِئِ العادِيِّ، ليُعْطِيَ المعنى والمفهومَ لكلِّ آيةٍ على حِدَة، وهوَ ما يُسمَّى بالمنهجِ التحليليّ، بحيثُ يَستَطيعُ أنْ يَستوعِبَ مَعنَى الآياتِ ويَفهمَ دَلالاتِها، دونَ تفصيلٍ ولا إيجاز، معَ عِنايةٍ بالكلمة، واهتمامٍ بالتَّركيب، وزادٍ منَ البيان، تَسْمُو بهِ لُغَةُ القارئِ وثقافتُهُ.

وقدْ رَكَّزْتُ على الجانبِ التعبيريِّ، الذي يرسِّخُ المعنَى ويَصِلُ إلى الفِكرِ والقَلب، واستخدمْتُ الأسلوبَ التربويَّ والدَّعَويَّ المُناسِبَ لذلك.

ولم أَتَطَرَّقْ إلى جوانبَ نحويَّةٍ وبلاغيَّةٍ وكَلاميَّةٍ، وكثيرٍ مِنْ تفاصيلِ المفسِّرينَ وتخصُّصاتِهِم، ولا شواهدَ كثيرةٍ ولا هوامش؛ بلْ أوردتُ التَّفسيرَ المتَّصِلَ بالآيةِ الكريمةِ مباشرَة، دونَ فَرزِ الغَريب، ولا الإشارةِ إلى ما سِواهُ ممَّا يَخرُجُ مِنَ السِّياق. وكفَى به عِلْمًا وفائدة، وهو ما يريدُ أن يعرِفَهُ القارئُ العادِيّ، أو المقبِلُ على الإسلام، ليفهَمَ ما هوَ القرآنُ، وماذا يُريد، وماذا تَعنِي آياتُهُ بدِقَّة؛ يَعْنِي: ماذا يريدُ اللهُ مِنْ عبادِهِ في كتابِهِ الكريم هذا؟ فكانَ هذا «**التفسيرَ الواضحَ**»، الذي أَردتُ أنْ أُوَسِّعَ مِنْ دائرةِ المستفيدينَ منه.

فليسَ المقصودُ بالمثقَّفِ العادِيِّ ما يَتَبَادَرُ إلى ذهنِ القارئِ وحْدَه؛ بلْ هوَ كلُّ مَن لم يَدْرُسِ العلومَ الشرعيَّةَ؛ فقدْ يَكونُ في أعلَى الدرجاتِ العلميَّة، وحاصِلاً على أرقَى الشهاداتِ المتخَصِّصَة، لكنَّها في غيرِ الإسلامِ

وعلومِه، وهوَ بهذا يَحتاجُ إلى أنْ يَعرِفَ عِلْمًا جديدًا، أو أنْ يَتوسَّعَ فيهِ مِنْ خِلالِ مَعرفةِ محتوَى القرآنِ العَظيمِ.

وهو أيضًا لِمنْ يريدُ أن يَعرفَ مضمونَهُ مِنْ غيرِ المسلمين، أو ممَّنِ اهتدَى منهمْ إلى الإسلامِ، سواءٌ كانَ عارفًا بالعربيَّة، أمْ تُرجِمَ له.

فالأمرُ كُلهُ يَتلخَّصُ في أنَّهُ تفسيرٌ بَيِّنٌ واضِح، يَفهمُهُ جميعُ فئاتِ المجتمعِ، متعلِّمُهمْ ومتخصِّصُهم، إذا أُريدَ المعنَى دونَ التفصيل.

والذي شجَّعني على الإقدامِ على تفسيرِ كتابِ اللهِ الكريم، هوَ وجودُ تفاسيرَ جَليلةٍ كانتْ عَوْناً لي على هذا العملِ. وقدِ اعتمَدْتُ على كثيرٍ منها، لكنَّ أبرزَها وأهمَّها: «تفسيرُ القرآنِ العظيم» لابنِ كثير، وفيهِ أوَّلُ نظري، ومنهُ أكثرُ استفادَتي. و«معالمُ التنزيلِ» للبغَويّ، و«روحُ المعَاني في تفسيرِ القرآن العظيمِ والسبعِ المثاني» لمحمودِ الآلوسيّ، و«في ظلالِ القرآن» لسَيِّد قُطْب.

ثمَّ تأتي تفاسيرُ أخرَى عديدة.

وقد أَنْقُلُ عباراتٍ للمفسِّرينَ كما هي، إذا وافَقَتِ الأسلوب، وكانتْ ملائمةً لنصِّ العِبارة، فالمُهِمُّ هوَ أن يُعطَى البيانُ التامُّ باللفظِ المناسبِ والتَّركيبِ الملائمِ، وألاّ يَقِفَ أمامَ ذلكَ عائقٌ.

وقد أَكْتَفِي بما تَدلُّ عليه الآيةُ أو أَزِيد، بحسَبِ ما أَراهُ مناسبًا لِمَا يتعلَّقُ بها، ومَنْ أرادَ تفاصيلَ أكثر، فعَلَيهِ بالتفاسيرِ الكبيرة.

وقد أَختارُ وجهًا أو أكثرَ في التفسير، أو أَضُمُّ مَعْنَيَيْنِ متقارِبَيْنِ إليه إذا لم يتبيَّنْ ليَ الأصحُّ في ذلك.

وما فسَّرتُ آيةً إلاّ ورَجَعْتُ إلى أكثرَ مِنْ تفسيرٍ لأعرفَ معناها، ولم أطمَئِنَّ إلى ما كتبتُ إلا إذا عرفْتُ أنَّ الآيةَ قد وَضَحَتْ للقارِئِ تمامًا، فإذا توقَّفَ المفسِّرون في شيءٍ ولم يُبَيِّنوه؛ فعلتُ ما فعلوا، وهوَ قليل. وإذا تضاربتْ أقوالُهمْ في المتشابهاتِ وما إليها، أَوردتُ نصَّ القرآن أو قريبًا منه؛ خَوفًا ورَهبةً. وهو قليلٌ كذلك.

واهتَمَمْتُ بالنَّاسِخِ والمَنسُوخِ منه، وأسبابِ النُّزولِ عندَ اللُّزوم، وذَكرتُ بَعضًا مِنْ فَضائلِ السُّوَرِ والآيات، وشَيئًا مِنَ الإعجازِ العِلميّ. واستَشهَدتُ بأحاديث، واقتَصَرتُ منها على الحسَنِ والصَّحيح. وذكرتُ ما وقَفتُ عليهِ ممَّا صَحَّ مِنْ تَفسيرِ رسُولِ اللهِ ﷺ ولم أتَقصَّه، وهوَ قَليل.

وقدْ جاءَ التفسيرُ على نَسقِ الضميرِ الواردِ في الآيات؛ فهوَ أصدقُ وأقربُ إلى القُلوب، وأكثرُ إيحَاءً وتأثيرًا، وهوَ متنوِّعٌ في القرآنِ وليسَ على مثالٍ واحد، ممّا يُثيرُ الانتباهَ في النَّفسِ، ويُبعِدُ الملل؛ بلْ يَزيدُ مِنَ المتابعةِ والتَّشويق.

وقدْ سَبقَ نَشرُ حَلَقاتٍ منْ هذا التفسيرِ في الشبكةِ الدوليَّةِ للمَعلومَات، والمعتَمَدُ هوَ ما كانَ له أحدَثُ تاريخ، وهو هذا.

ودَعَوْتُ اللهَ أنْ يَهْدِيَني ويُسَدِّدَني كُلَّمَا جَلَسْتُ إلى تفسيرِ كتابِهِ الكريم، وكنتُ أتعوَّذُ بِهِ ـ سبحانَهُ ـ مِنْ أنْ أفسِّرَهُ على غَيرِ مُرادِه.

أَدعُوهُ تَعالَى أنْ يغفِرَ لي زَلَلي وتَقصيري فيه، وأنْ يَتقبَّلَهُ خالِصًا لوجهِهِ الكريم، ويَضَعَ لهُ القبول، فهوَ منهُ وإليهِ، إنَّهُ سَميعٌ عَليم.

محمد خير يوسف

❑ ❑ ❑ ❑ ❑ ❑